



مهزلة العقل البشري د/ علي الوردي

تلخيص: أنوار الجنفاوي

مقدمة

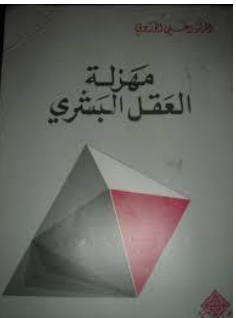
إن النظريات العلمية قد أحدثت انقلاباً هائلاً في نمط التفكير وهي في الواقع ثورة كبرى.

لا يجوز لنا أن ننكر فضل الفلسفة القديمة في تطور الفكر البشري. ولكن اعترافنا بهذا الفضل لا يمنعنا من التطور بأفكارنا حسب مقتضيات الزمان الجديد.

يحاول بعض رجال الدين ادعاء التجديد فيما يكتبون و ما يخطبون فهم يحصلون على المصطلحات الجديدة من المجالات و الجرائد ويكررونها و بذلك يعتقدوا أنهم مجددين. ينبغي أن يفهم هؤلاء أن التجديد لا يعني التمشدق بالمصطلحات الحديثة ولكنه بالأحرى تغيير عام في المقاييس الذهنية التي يجري عليها المرء في تفكيره.

يجب أن نلتفت الى ناحية غفل عنها أرباب التفكير القديم، فهم يدرسون الظواهر الاجتماعية على أساس التعارض بين الوجود والعدم وهو ما يعرف بقانون «الوسط المرفوع» .

الباحثون المحدثون لا يؤمنون بهذا القانون فهم حين يدرسون أي ظاهرة اجتماعية يراعون فيها نسبة التزايد والتناقص، فالمشكلات الاجتماعية لا تنشأ من سبب واحد و ليس هناك ما يمكنه القضاء عليها قضاءً تاماً.



أطلق بعض العلماء على الحب والغرام اسم «العقدة الرومانتيكية» وبينوا ما تجني هذه العقدة على الناس من بلاء عارم يؤدي الى تحطيم العائلة.

وجدنا أصحاب الفكر القديم لا يميزون بين الممكن وغير الممكن من الأفكار، هم يريدون أن يدرسوا الفكرة دراسة واضحة منطقية، فإذا وجدوها جميلة ذات محاسن آمنوا بها واندفعوا في الدعوة إليها اندفاعاً أعمى.

إن وجود المشكلات في المجتمع دافع من دوافع التطور ولولاها لاستكان الناس ووقفوا في طورهم الذي هم فيه. من خصائص الحياه أننا لا نستطيع أن نجد فيها عهداً يخلو من مساوئ.

المرأة هي المدرسة الأولى التي تتكون فيها شخصية الانسان والمجتمع الذي يترك أطفاله في أحضان امرأة جاهله لا يمكنه أن ينتظر من أفراده خدمة صحيحة، فالمرأة مخلوق بشري كالرجل لها الحق في أن تعيش كما يعيش وأن تتمتع بالحياة على منوال ما يفعل الرجل.

من المفاهيم الجديدة التي يؤمن بها المنطق الحديث هو مفهوم الحركة والتطور، كل شيء في هذا الكون يتطور من حال الى حال. على الواعظين أن يفحصوا قوة التيار قبل أن يقاوموه فعليهم أن يفهموا أو يسكتوا.

عندما احتك المسلمون بالحضارة الغربية انجرفوا بتيارها وأصبحوا مجبرين على اقتباس ما جاءت به من محاسن ومساوئ. فالحضارة جهاز متكامل لا يمكن تجزئته فهي حين ترد تأتي بمحاسنها و مساوئها فلا يمكن فصل بعضها عن بعض.



الفصل الأول: الطبيعة المدنية

المجتمع البشري لا يستطيع أن يعيش بالاتفاق وحده فلا بد أن يكون هناك شيء من التنازع لكي يتحرك الى الأمام. إن الاتفاق يبعث التماسك في المجتمع ولكنه يبعث فيه الجمود أيضا، فاتحاد الأفراد يخلق قوة لا يستهان بها في مواجهة الجماعات.

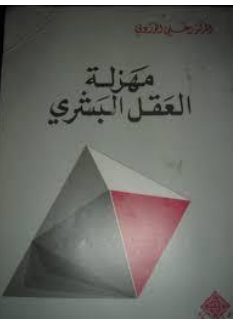
إن التماسك الاجتماعي والجمود توأمان يولدان معا ومن النادر أن نجد مجتمع متماسك ومتطور في آن واحد.

إن المجتمع المتماسك يشبه الانسان الذي يربط احدى قدميه على الأخرى فلا يقدر على السير، اذا بدأ التنازع الفكري والاجتماعي استطاع المجتمع أن يحرك قدميه ويسير بهما في سبيل التطور الذي لا يقف عند حد.

إن المدنية والقلق صنوان لا يفترقان فالبشر قبل ظهور المدنية كانوا في نعيم مقيم.

فالأساس الذي يقوم عليه المدنية هو الكدح والشقاء والمعاناة، فالمناطق التي يسهل فيها اكتساب القوت لا تستطيع أن تنتج مدنية فهي تعود الانسان على الكسل والتسليم بالقدر.

المدنية لها ثمن باهظ هي ربح من ناحية وخسارة من ناحية أخرى. يقول توينبي: إن المدنية هي مسرح الشيطان ومجاله الذي تخصص فيه فالمدنية في رأيه هي نتاج النزاع بين الله والشيطان.



الشر عند المتصوفة ضروري لوجود الخير فالإنسان لا يدرك الخير الا إذا كان الشر مقابلاً له .

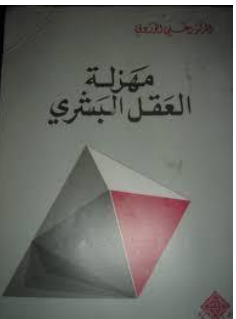
عيب الطوبائيين أنهم لا يؤمنون بالحركة والتطور فالحركة أمر طارئ والسكون هو الأصل في الكون فهم لا يستطيعون أن يفهموا سر المدنية .

كان الانسان قبل اكتشاف المدنية يعيش حالة من السعادة النفسية التي تحببه في الحياة، أما بعد اكتشاف المدنية أخذ يفكر كل يوم ماذا يفعل لمواجهة مشكلاته الجديدة التي لم تطرأ على بال الأباء والأجداد.

يعتقد بعض المفكرين أنه يمكن تجزئة المدنية ولكن هذا رأي لا يستسيغه المنطق الحديث فالمدنية كل لا يتجزأ فمن المستحيل أن نفصل بين محاسن و مساوئ المدنية. إن التجديد في الأفكار هو الذي يخشاه مشايخ الدين لا الأفكار ذاتها.

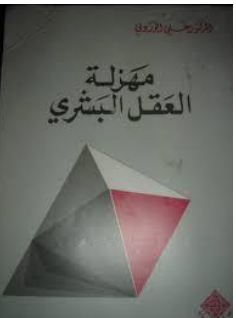
إن فقهاء اليزيدية استراحوا عندما حرموا على اتباعهم القراءة والكتابة فقد يبدأ الانسان بقراءة الكتب ومن ثم يلجأ الى قراءة كتب أخرى قد يكون من بينها كتب الفلسفة وعلم النفس التي قد تؤدي الى التفكير في أشياء يصعب على العقل الوصول إليها .

جاءت المدنية للإنسان بخير عظيم ولكن بشر أعظم، هي أطلقت الفكر من حبسه فأخذ يجوب الفضاء و يستفهم عن كل شيء فسارت بالفكر في طريق القلق و العصيان.



المدنية معناها التكالب والتزاحم واستغلال الناس بعضهم لبعض .

يقول الآثاريون أن المدنية لم تبدأ في التاريخ إلا بعدما اكتشف الانسان الزراعة فقد كان الانسان قبل ذلك يلتقط القوت من الشجر أو يقتنصه من على الأرض. فالزراعة تحتاج الى تدبير خطة وانتظار وادخار وهي أمور تحتاج الى التفكير في الغد والاستعداد له.



الفصل الثاني: منطق المتعصبين

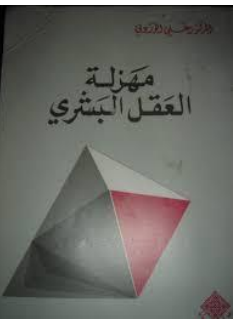
إن الذين يمارسون المنطق القديم في هذا العصر يشبهون الأبطال من طراز عنتره العبسي الذين يهجمون بالسيف على جندي حديث يحمل بيده رشاشا سريع الطلقات، فهم مهما تفتنوا في ابداء ضروب البسالة والشجاعة فإن الرشاش يحصدهم في أرجح الظن حيث لا ينفعهم آنذاك بسالة ولا شجاعة.

ليس من المجدي أن أقول بأن المنطق الحديث أصح من المنطق القديم، فليس هناك مقياسا مطلقا يرضى به الفريقان. ولكن نستطيع أن نقول بأن المنطق الحديث سينتصر على المنطق القديم شئنا أم أبينا.

ولأنني أحب القراءة و خاصة كتب رجال الدين الذين يردون على بعضهم البعض، فالكاتب منهم يبدأ كتابه بتجميد العقل وبوجوب الاسترشاد به في تصحيح كل رأي أو عقيدة ولكننا نجد في ثنايا الكتاب لا يخرج عن عقائده الموروثة.

يمر الزمان ويظل بعض رجال الدين مشغولون بتأييد عقائدهم عن طريق العقل و المنطق فلا يفتق أحدهم بما يقول الآخر وكل منهم ينسب للآخر صفة المكابرة والمغالطة والعناد .

المتدين المؤمن بعقيدته من العقائد لا يستطيع مهما حاول أن يتجرد من عاطفته المذهبية وقد يظن المؤمن أنه متجرد من العاطفة ولكن ذلك من قبيل الأوهام التي لا أساس لها من الحقيقة.



إن من شروط المنهج العلمي الدقيق أن يكون صاحبه مشككا حائرا قبل أن يبدأ بالبحث. إما أن يدعي النظرة الموضوعية وهو منغمس في ايمانه الى قمة رأسه فمعنى ذلك أنه مغفل أو مخادع ونحن نريد أن نبرئ رجال الدين من هاتين الصفتين.

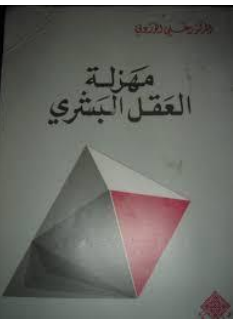
إن الجدل المنطقي الذي يستخدمه رجال الدين عبث ضائع لا طائل وراءه ولا جدوى فيه، فالجدل قد يسكت الانسان وقد يقحمه أحيانا ولكنه لا يقنعه ويظل الانسان مؤمنا بصحة رأيه حتى النفس الأخير.

حين يدافع الانسان عن عقيدة من عقائده المذهبية فيظن أنه يريد بذلك حب الحق و الحقيقة وما يدري أنه يخدع نفسه. لم يبتكر العقل البشري مكيدة أبشع من مكيدة الحق و الحقيقة، ولا أجد انسان في هذه الدنيا لا يدعي حب الحق و الحقيقة .

إن من الظلم أن نعاقب الناس على عقائدهم التي لقنوا بها في نشأتهم الاجتماعية، والمنطق القديم مبني على أن الانسان يعتنق عقيدته بإرادته وأنه يصل اليها عن طريق التفكير و الرؤية وهذا خطأ قد يؤدي الى الظلم أحيانا.

فالواقع أن الانسان يؤمن بعقيدته التي يورثها من آبائه أولا ثم يبدأ بالتفكير فيها لاحقا وغالبا تفكيره يدور حول تأييد تلك العقيدة .

كان القرآن يهيب الناس ويهتف بهم المرة بعد المرة قائلا لهم « ألا تفكرون ، ألا تعقلون ، ألا تبصرون» والناس يسمعون هذا ولا يفهمون، ولكن كلما ازداد الإسلام انتصارا ازدادوا به ايمانا .



إن ما وصف به القرآن عقول البشر يشبه الى حد بعيد ما اكتشفه العلم الحديث من طبيعة العقل البشري، فالعقل البشري مغلف بغلاف لا تنفذ اليه الأدلة والبراهين إلا من خلال نطاق محدود وهذا النطاق الذي تنفذ منه يكون مؤلف من تقاليد البيئة التي ينشأ منها الانسان. فإذا أتيت للإنسان بأقوى دليل تريد أن تقنعه على رأي يخالف تقاليد لوى عنك عنقه.

كان القدماء يصفون الدليل القوي كالشمس في رابعة النهار ونسوا أن الشمس على رغم وضوحها لا تصلح دليل كافي لإنسان إذا كان أعمى .

كان القدماء يتراشقون بالتهم والشتائم أثناء الجدل وكل منهم يدعي أنه صاحب الحق الأوحد دون الناس جميعا .

انت لا تستطيع أن ترى شيئا محجوبا عنك أو واقعا خارج نطاق الرؤية منك وكذلك لا تستطيع أن ترى شيئا وانت أعمى، فأحساسك بالشيء يشترط له أن تكون لديك حاسة كافية تجاهه وإلا أصبح الشيء في نظرك بمثابة المفقود الذي لا وجود اليه.

يعتبر العلماء اليوم أن التفكير كالأحساس محدود، فأنت لا تستطيع أن تعقل شيئا الا إذا كان ذلك الشيء داخل نطاق المفاهيم والمقاييس الفكرية التي تعودت عليها في محيطك الاجتماعي .

العقل البشري لا يحس بوطنة الإطار الموضوع عليه الا إذا انتقل لمجتمع جديد ولاحظ وجود مفاهيم مغايرة لمألوفاته السابقة .



يمكن تشبيه الحقيقة بالهرم ذي الأوجه المتعددة فالمفكر المقيد اجتماعيا يركز نظره في وجه واحد من الحقيقة ويهمل الوجه الآخر فهو مربوط بسلاسل العادات والتقاليد، أما المتحرر فهو قادر على الحركة قليلا أو كثيرا.

كان القدماء يعتقدون أن الحقيقة واحدة وهي معلقة في الفراغ ومعنى ذلك أنها ذات وجه واحد فمن رأى ذلك الوجه أدرك الحقيقة كاملة دون لف أو دوران.

إن المنطق الحديث قد نسخ هذا المبدأ، فهو يرى أن الحق لا يمكن أن يحتكره فريق من الناس دون فريق كل فريق ينظر الى الحق من الجانب الخاص به.

إن الحق والباطل أمران متلازمات فحيث يكون الحق يكون الباطل معه .

إن المنطق القديم يصلح لزمان مضي ولا يصلح لهذا الزمان الذي نعيش فيه. سوف يأتي على الانسان يوم يستطيع أن يخرج من أدنى الأرض الى أقصاها. فيجب أن يدرك الانسان أنه مقبل على عصر جديد لا تصلح فيه الأفكار المحدودة التي كان يتباهى بها أجداده.



الفصل الثالث: علي بن أبي طالب

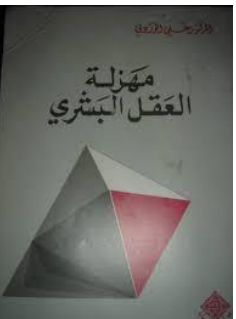
مررت بسوق الكتب فرأيت كتابين أحدهما لمحِب الدين الخطيب في القاهرة والثاني يعود لمكتبة أهل البيت في بغداد. يحاول الكتاب الأول أن يثبت الإمامة لأبي بكر و عمر وأنهما أفضل من علي بن أبي طالب. أما الثاني فيحاول اثبات الإمامة لعلي بن أبي طالب.

يقول الأول: إن اتفاق كلمة المسلمين لا تتم إلا إذا خضع الشيعة لإمامة أبي بكر وعمر، فالصحابه كلهم عدول وإن تفاوتوا في العلم والمنزلة.

الثاني يقول: أنه لا سعادة للمسلمين إلا إذا اتفقوا على مبادئهم فهي تدعوهم بحججها و براهينها إلى أسعادهم و إعلاء كلمتهم.

إننا ندرس التاريخ لكي نستفيد منه لحاضرنا ومستقبلنا، فمن السخرية أن نتجادل في شيء مر عليه ثلاثة عشر قرناً دون أن نستفيد منه. إننا حين ندرس التاريخ نريد أن نستشف منه تنازع المبادئ فيه ونتخذ الأبطال رموزاً لتلك المبادئ.

نحن إن ندرس النزاع بين علي ومعاوية نرى تصادم بين مبادئ متضادين أحدهما يحرص على أموال الأمة والآخر يريد أن يقسم أموال الأمة كما يشتهي السلطان.



لو كان الجدل في أفضلية علي و أبي بكر يدور في نطاق البحث عن المبادئ التي تمس مشكالتنا الراهنة لكان جدلا نافعا له أهميته الاجتماعية.

علي يضع قضيته مع أبي بكر و عمر لله ليحكم فيها بحكمه فهي قضية رئاسة حرص عليها قوم وتسامح عنها آخرون. إن الأهمية الكبرى في رأي علي تنحصر في نزاعه مع معاوية بن أبي سفيان إذ أن معاوية يريد أن يطفئ نور الله و علي مصمم أن يحمله على الحق أو يموت دون ذلك.

كان علي وأبو بكر عادلين حريصين على أموال الأمة لا يأخذان منها شيئا. أما النزاع بين علي ومعاوية فهو أعمق من هذا فهو لا يدور حول أخطاء بسيطة إنما يدور حول مصير الأمة.

لم يفهم الناس أهمية هذا النزاع الا في العصور الحديثة وذلك بعدما نضج الرأي العام واشتد وعي الشعوب وأخذوا يحاسبون حكامهم على كل فلس يصرّفونه من أموال الدولة.

إن نظام الأكثرية الذي تقوم عليه الديمقراطية الحديثة لم يرق إلا بعد توافر شروط عديدة أهمها انتشار التعليم ووعي الرأي العام. كلما اشتد وعي الناس وانتشر التعليم ازدادت مقدرة الأكثرية على أن تفرض رأيها على الحكام.

كلنا ننادي بالحق والحقيقة عندما نخطب أو نتجادل أو نتلو القصائد الرنانة ولكننا نفعل ذلك لأننا نشعر أن هذه الأقوال سليمة لا ضرر منها ولا مسئولية عليها .



مما يلفت النظر اليوم أن المسلمين جميعا يحبون علي بن أبي طالب فمنهم من يحبه كثيرا ومنهم من يحبه قليلا ومنهم من يفرط في حبه لدرجة الغلو وليس هناك من يكره علي في هذا العصر الا طائفة صغيرة هي من بقايا الخوارج وهم منعزلون عن بقية المسلمين في أماكن نائية.

لقد كانت الدولة الذي أسسها معاوية دولة طبقية قبل أن تكون دولة إسلامية ديمقراطية حيث كانت تضع رعاياها في درجات متفاوتة .

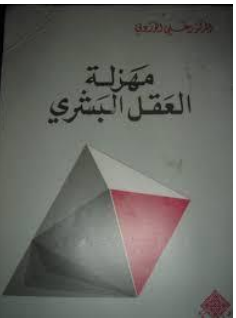
أما علي فكانت سياسته على النقيض من ذلك فكان يعطف على أهل الذمة ويعاملهم معاملة المسلمين .

عاش الناس في عهد علي وهم لا يعرفون قدره فلما مات وتوالى على منصة الحكم بعده حكام جائرون أحس الناس بأنهم خسروا بموت علي خسارة لا تعوض .

إن الغلو في العقيدة يصاحب النزعة الثورية غالبا ذلك لأن الأفكار الرصينة والعقائد المعتدلة باردة بطبيعتها فهي لا تدفع الناس الى الحركة ولا تشجعهم على المجازفة في سبيل مبدأ من المبادئ.

إن ولاية علي بن أبي طالب كانت في العهد الاموي شعارا له مغزاه الاجتماعي ودلالاته السياسية والدولة الأموية قامت على أساس مخاصمة علي .

بعد ذلك أخذ الناس يغالون في حبهم لعلي وفي اشادتهم بفضله كلما اشتدت الدولة عليهم في أمر من الأمور ، فصار اسم علي رمزا لمعارضة الدولة فلم يكن من الهين على رجل أن يقول أنه يحب عليا ثم يبقى محافظا على ماله أو نفسه. إذا اتسعت الفجوة بين الحاكم والمحكوم صار المحكوم يعاكس كل دعوة يدعو اليها الحاكم والمحكوم يجد نفسه آنذاك مدفوعا الى الغلو في حب أي شخص يكرهه الحاكم أو يدعو الى سبه.



الفصل الرابع: عيب المدينة الفاضلة

إن البشر حين يتوادون ويتحدون يرتفع من بينهم الظلم والعدوان ولا يستطيع الطغاة الاستبداد بهم عند ذلك.

كل انسان ميال الى الاستبداد والظلم حين يترك على دست الحكم منفردا يحكم كما يشاء. الانسان لا يحب أن يظلم ولكن الظلم يأتي على يديه من حيث لا يدري وسبب ذلك أن الظلم والعدل أمران نسبيان.

إن الذي يريد أن يغير طبيعة الانسان بواسطة الموعظة والكلام المجرد لا يختلف عن هذا الذي على القطط حمل الشموع فالناس يستمعون له ويتأدبون أمامه ويسيرون بين يديه بوقار.

يذكر الفارابي أن الخصال التي يجب أن تتوفر في الرئيس الجيد حسب اصطلاح افلاطون:

١- أن يكون تام الأعضاء ومتى هم عضو عنده بالعمل تعامل معه بسهولة.

٢- أن يكون جيد الفهم والتصور لكل ما يقال.

٣- أن يكون جيد الفطنة ذكيا.

٤- يكون محبا للتعليم والاستفادة منقادا له سهل القبول.

٥- يكون غير شره في الأكل والشرب.



يظن الفارابي أن الإصلاح الاجتماعي أمر سهل للغاية فهو موقوف على اختيار رئيس للمجتمع تتوافر فيه الصفات التي تم ذكرها وعن ذلك يستريح الناس وتشملهم أوامر المحبة والاحياء والسعادة فهنيئاً لهم.

لا يكفي في الفكرة أن تكون رائعة وجميلة إنها يجب أن تكون عملية قبل أي شيء. إن المصلح أو النبي قد يأتي بفكرة بسيطة ولكنه يقرب بها العالم فهو يأتيها لتؤثر في حياة الناس وتدفعهم نحو الحركة الاجتماعية التي تلعب دورها في صياغة التاريخ.

أما الفارابيون فمشغولون بأفكارهم العالية ولا يبالون أن تكون ممكنة التحقيق أو غير ممكنة.

إذا رأينا فكرة جميلة لا يتبعها الناس على مر الأجيال فمعنى ذلك أن العيب فيها لا في الناس، فالناس جبلوا من طبيعة معينة لا يستطيعون البعد عنها. إن العقل أن تكون مجنوناً أحياناً والتيار الاجتماعي من أن يصده فرد متحلق.

جبل الانسان أن يرى في نفسه الجدارة والصلاح والعلم، حتى البليد المغفل قد يظن أحياناً أنه أجدر من غيره بالرئاسة لما لديه من بعد نظر وسمو أخلاق.

إن المجتمع الحديث اكتشف طريقة لا بأس بها في اختيار الرئيس ألا وهي «نظام التصويت».

الانسان مجبول أن يرى الحقيقة من خلال مصلحته ومألوفات محيطه فإذا اتحدت مصلحته مع تلك المألوفات الاجتماعية صعب عليه أن يعترف بالحقيقة المخالفة لهما ولو كانت ساطعة كالشمس.



الواقع أن البشر لن يصلوا إلى الأهداف الاجتماعية التي ينشدونها فهم سيظلون دائبين في حركتهم نحو تلك الأهداف، وسر الحياة الاجتماعية كامن في تلك الحركة الدائبة، فلو أن البشر وصلوا إلى ما يريدون لوقفت الحياة بهم و لفنيت الحضارة، فالحياة عبارة عن تفاعل وتناقض وتنازع ولولا ذلك لما كان هناك شيء اسمه حضارة.

إن الحزب الذي يناضل من أجل العدالة لا يستطيع أن يحقق العدالة كاملة إذا وصل لمنصة الحكم. ولكن الحزب المعارض يقوم بوظيفة اجتماعية كبرى حين يكافح من أجل العدالة. فيقف في وجه الحاكم ويمنعه من الطغيان.

يقول علماء الاجتماع أن المجتمع البشري لا يمكن أن يخلو من مشكلات. وهذه المشكلات رمز حياته وشعار حركته الدائبة، فالمشكلة تحفز الناس على معالجتها وبهذا ينقسمون ويتصارعون كل منهم يتخذ رأي مختلف عن الآخر.

لقد أدرك أهل ذلك العصر أن التنازع بين البشر أمر طبيعي لا يمكن إزالته بواسطة الموعظة أو الكلام الرنان ولذلك وجدنا في نظمهم الاجتماعية والسياسية يدعون إلى الاعتراف به ويفسحون مجالا ضمن حدود مشروعة.

الديمقراطية في الواقع ماهي إلا نظام يقوم في أساسه على التنازع فهي تفسح المجال للناس أن ينضموا للأحزاب المتنازعة ولكنها تضع لهم في عين الوقت قواعد واضحة يتنازعون تبعاً لها.



الديمقراطية لا تؤمن بالحق المطلق وهي كذلك لا تقنع بالحجج المنطقية التي يدلى بها أحد الأحزاب في تأييد رأيه، إنها لا تؤمن إلا بكثرة الأصوات فإن استطاع حزب أن يجمع له أكبر عدد من الأصوات كان له الحق في أن ينتصر و يحكم ولا أهمية عند ذلك للأدلة العقلية والنقلية التي يحتج خصومه بها عليه.

هناك فرق بين منطق الحق المحتكر الذي يؤمن به القداماء ومنطق الأكثرية الذي يؤمن به أهل هذا العصر. ذلك يحتقر التنازع نظريا ولكنه يساعده فعليا وهذا يعترف به و يحترمه ويفتح له مجالا مشروعا يفصح به عن نفسه.

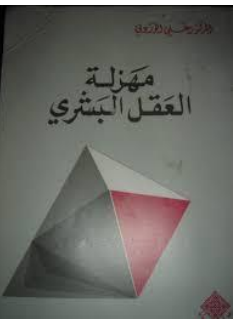
لسنا ندعي أن منطق الأكثرية هو خير منطق يمكن أن يأتي به الانسان إنما نقول بأنه على أي حال خير من منطق الحق المطلق الذي استند عليه الطغاة المتفيقهون في الأزمنة القديمة.

عيب الطوبائيون أنهم يصعدون بمثلهم العليا فوق السحاب ولا ينزلون بها قريبا من الأرض التي يعيشون فيها لذلك فمثلهم العليا لا تجدي في تحفيز المجتمع نحو الحركة.

لم يكن بالإمكان في الأزمنة القديمة تحقيق التنازع الديمقراطي على منوال ما هو عليه اليوم في الأمم الراقية من حيث اتصافه بالهدوء النسبي وعدم إراقة الدماء فيه.



ان الديمقراطية الحديثة قامت على مبدأين أولهما البارود وأخرهما الطباعة. الديمقراطية عادة اجتماعية قبل أن تكون فكرة طوبائية ونحن نحتاج لممارسة هاتين التجارب جيلا بعد جيل فنقوم بها ونقع عدة مرات حتى يتغلغل منطق الديمقراطية في مفاهيمنا وتقاليدنا فبذلك نخرج من أفكارنا القديمة الى عالم واسع.



الفصل الخامس: أنواع التنازع وأسبابه

يرى البروفيسور كارفر أن التنازع البشري له أربعة أنواع:

- النوع الأول أوطأ أنواع التنازع وأقربها الى الطبيعة الحيوانية الأولى ففيه يعتمد الفرد على قوته لتحطيم خصمه.
- النوع الثاني يدخل فيه شيء من الرؤية واستخدام الذكاء وهو أرقى من النوع الأول.
- النوع الثالث يسود العالم المتحضر و يتخذ أشكالاً معينة كالغزل بين الرجل والمرأة، والحملات الانتخابية بين الأحزاب، والاعلانات في الشركات التجارية.
- النوع الرابع هو المنتج الذي يأمل أن يسود العالم في يوم ما مثل المنافسة العلمية والاقتصادية والاجتماعية.

الانسان مجبول على التنازع في صميم تكوينه فإذا قل التنازع الفعلي لجأ الى اصطناع تنازع وهمي ليروح به عن نفسه. فالإنسان لا يستطيع أن يتحول من نزعة التنازع إنما هو يتحول من صورة الى أخرى فهو ينتقل من النوع الأسفل الى النوع الأعلى بتقدم الحضارة.



الحياة الاجتماعية ليست إلا صراعا متواصلا بين المصالح الخاصة كما يتصارع التجار ويتنافسون كل يسعى وراء ذاته. إن الانسان في حركة دائبة وتطور متواصل وهذا هو سر حضارته.

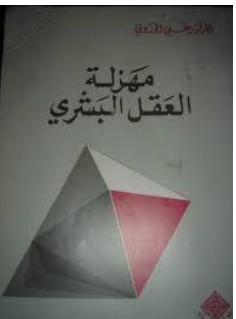
ليس في هذه الدنيا شيء يمكن ان يتلذذ به الانسان تلذذا مستمرا فكل لذه مهما كانت عظيمة تتناقض تدريجيا عند تعاطيها وهو ما يعرف في علم الاقتصاد الحديث «المنفعة المتناقضة».

لقد وضعت الطبيعة أمام الانسان مغريات متنوعة ذات بريق، ولو فكر الانسان في هذه المغريات تفكيراً منطقياً بارداً لأحس بالمكيدة المنصوبة له ولكنه لا يفكر في هذا المنوال الا نادراً.

الانسان يشتهي أموراً لو تأمل فيها لوجدها تافهة لا تستحق العناء والتكالب هذا ولكنه مدفوع نحوها بدافع الإيحاء الاجتماعي الذي يشبه التنويم المغناطيسي.

الانسان يتكالب على الأشياء لأنه يرى نفسه أحق بها من غيره فهو قد لا يريد الشيء بحد ذاته ولكنه يتهافت عليه حين يرى الآخرون يتهافتون عليه. التكالب وتقدير الذات صاراً بنفس الاعتبار متكاملين يدعم أحدهما الآخر .

ليس من الممكن اقناع البشر أن يصبروا على حالهم زمناً طويلاً فالحضارة البشرية لا بد أن تستمر في سيرها الدائب ولا بد لها من وقود تحترق به نفوس البشر.



الفصل السادس: القوقعة البشرية

المجتمع البشري في تطور مستمر والانسان حين يخدم مجتمعه يدري أنه يخدمه وهو يريد من وراء ذلك جزاء. إن غريزته لا تدفعه إلى الخدمة الاجتماعية إنما هو مدفوع إلى الخدمة بدافع حب المكانة والظهور من جهة ومن أجل الحصول على القوت من الجهة الأخرى. والمشكلة أنه دائم التذمر والتشكي يرى نفسه أكثر خدمه من غيره أو أعلى همه وأصح فكرا هو يطالب اذا بجزائه الأوفى.

إذاً الفرد المجتمع لا يقدره على خدمته تقديرا مرضيا فلجأ إلى الشكوى والصراخ، ونحن مهما كنا جادين في إرضاء الناس فإننا لا نستطيع أن نجعلهم كلهم رؤساء أو مدراء.

إننا نأمل أن يصل البشر إلى انشاء نظام اجتماعي خير من النظام الذي نحن فيه ولكن هذا لا يعني أن الناس سيقنعون به ويسودهم فيه الاخاء والطمأنينة، مهما أصلحنا مجتمعنا يبقى هناك أناس متذمرون ويشعرون أنهم مظلومون.

الانسان كما نلاحظه اليوم وقبل اليوم على توالي الدهور الماضية أناني يعيش داخل قوقعته الذاتية وهو لا يرى الحقيقة إلا من خلال هذه القوقعة المحصنة.

إنه يرى نفسه أفضل من أقرانه فإذا رأى قرينا له ينال بين الناس منزلة أرفع من منزلته تألم ونسب إلى الناس الظلم.



يجب أن لا ننسى أن كل طائفة من الناس تعتقد أن ثقافتها هي الصحيحة وأن قيمها الاجتماعية هي المعيار الثابت الذي يمتاز به الحق عن الباطل.

إذا كان المجتمع يقدر البحث العلمي والاختراع وابتكار النظريات الجديدة وجدت كل فرد يسعى في سبيل ذلك ثم يظن أنه قد نبغ فيه وتفوق على الأقران.

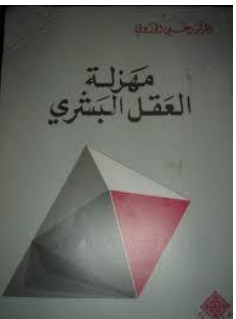
إن القوقعة البشرية في أوج قوتها أثناء سنوات الطفولة الباكرة فالطفل إذ يرى الدنيا بمنظار عواطفه وملذاته وهو لا يستطيع أن يفرق بين الحقيقة الموضوعية وبين عاطفته نحوها.

إذا نال الإنسان منفعة من شخص ما ارتفعت قيمة ذلك الشخص لديه وأصبح من العادلين، أما إذا أصابه ضرر صار ذلك الشخص من ألن خلق الله في نظره.

يصعب على الإنسان أن يتخلص من قوقعته الذاتية مهما حاول فهي تكتنفه من حيث لا يشعر بها فهي تجعله يضخم محاسنه الخاصة في الوقت الذي يضخم فيه مساوئ منافسيه وخصومه.

لذا نجد أن الإنسان يعيش في قوقعته الخاصة فهو لا يعرف ما يقول الناس عنه في غيابه معرفة دقيقة. إن الإنسان مجبول أن ينسى مساوئه ويتذكر محاسنه تذكرا لا يخلو من المبالغة.

إن من الخطأ الفادح أن يظن أحدها أن ما نشعر به من أحاسيس نفسية متنوعه خاصة به وحده.



حب الانسان نفسه قد يدفعه الى الاعتقاد بأنه يجب أن يستلم زمام الأمور بيده، فهو وحده الذي يستطيع أن يصلح المجتمع وهو يدلي برأيه في الإصلاح ويظن أنه جاء بخير الآراء الممكنة و أدعاها للنجاح.

الانسان لا يملك غريزة ثابتة تدفعه نحو الخدمة الاجتماعية إنما هو يندفع في خدمة قومه لأنه يرى نفسه أولى من غيره. لا تنكر أن النظرة القوقعية قد تؤدي الى كثير من المكائد الدنيئة والمؤامرات التي تضر أكثر مما تنفع.

كل انسان يحب نفسه و يتكالب على اعلانها، فينتج عنه التنازع الضار كما ينتج عنه التنافس النافع ولا يمكن الفصل بين هذين الوجهين.



الفصل السابع: التنازع والتعاون

إن التنازع والتعاون هما دعامة الاجتماع البشري وقد اتضح لدى علماء النفس أن الحب والبغض متلازمان في النفس كتلازم التعاون والتنازع في المجتمع.

لا يمكن أن تقوم جماعة بشرية إلا ويكون حافز التنازع كامنا فيها فالعائلة التي تعد نموذجا للتأخي بين الأفراد نراها لا تخلو من التنازع .

وجد الباحثون في المجتمع البدوي أن كل قبيله فيه عبارة عن تفاعل بين عاملي التجاذب والتنافر فالبدوي شديد التعلق بقبيلته حين تصدم بقبيلة أخرى. لذلك نجد أن القبيلة البدوية لا تكاد تكبر حتى تنقسم.

ظن القدماء أن التنازع شر محض لا ينتج عنه أي خير وهم في هذا النوع مخطئون وخطأهم ناشئ من كونهم لا يعرفون مجتمعا خاليا من التنازع .

فلا شك أن التنازع مضر بالإنسان ولكنه نافع له أيضا فهو الذي يحفزه نحو العمل المثمر المبدع وبه يشعر الإنسان أنه حي ينمو.



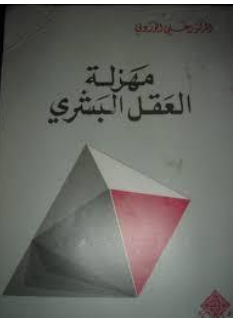
إن الطبيعة البشرية كما نعهدها في حياتنا الدنيا لا تستسيغ «السرر المتقابلة» والسعادة الرتبية فهي تشتهي التنازع والتكالب لكي تلتهي بهما عن سام الحياة وتفاهة غايتها.

إن التنازع والتعاون أنفا صنوان لا يتفرقان ووظيفة كل منهما أن يخفف من حدة الآخر وأن يؤدي عمله ضمن نطاقه المحدود له والمجتمع المتوازن هو الذي تتكافأ فيه قوى هذين العاملين فلا يطغى أحدهما على الآخر.

المجتمع الذي تسوده قوى المحافظين يتعفن كالماء الراكد، اما المجتمع الذي تسوده قوى المجددين فيتمرد كالطوفان حيث يجتاح الحدود والحدود. والمجتمع الصالح ذلك الذي يتحرك بهدوء فلا يتعفن إذ تتوازن فيه قوى المحافظة والتجديد فلا تطغى أحدهما على الأخرى.

إن المحافظين يدعون الى صيانة التماسك الاجتماعي وهم يقدسون وحدة الجماعة ويكفرون من يشق عصا الطاعة عليها. أما المجددون فيدعون الى التطور ولا يباليون بوحدة الجماعة بمقدار ما يباليون بالتكيف والتقدم.

إن المتجددون المتمردون فهم لا يهتمون بقوة الجماعة أو وحدتها بمقدار اهتمامهم بالعمل على تحقيق مبادئ العدالة والمساواة جيلا بعد جيل. وهم يرون أن الحروب الخارجية تلهي الناس عن الاهتمام بمبادئ الثورة الأولى وقد تشغلهم بحماسة قومية لا صلة لها بتلك المبادئ.



الفصل الثامن: مهزلة العقل البشري

إن أي إنسان لا ينمو عقله إلا في حدود القلب الذي يصنعه المجتمع له ومن الظلم أن نطالب إنسان عاش بين البدائيين أن ينتج لنا فلسفة معقدة كفلسفة برجسون أو رياضيات عالية كرياضيات أينشتاين.

إن المفكرين القدماء ظلموا أنفسهم عندما اقتنعوا أن العقل البشري مرآة الحقيقة فهم درسوا الفلسفة من كتب ورثوها عن أسلافهم وأخذوا يحفظون ما قال السلف فيها ويجترونها ثم يتقيؤونه على تلامذتهم فهم بذلك يضعون عقولهم وعقول التلامذة في قوالب الأسلاف دون أن يشعروا.

إنهم يعتقدون أن ما اعتادوه وأفوه من الآراء أمر لا يقبل الجدل فهو خالد ثابت لا يتغير في نظرهم وهو الحق الذي لا يمكن الريب فيه وذلك لأن اكتشافه العقل وآمن به على مرور الأجيال فلا مجال للشك عندهم. تشير الدراسات الحديثة أن التعصب صفة أصيله في العقل البشري وأن الحياد أمر وارد عليه.

فنحن لا يجوز أن نعجب إذاً من مثل هذا التعصب في عقل الإنسان الأولى بنا أن نعجب بوجود الحياد فيه. إن العقل يفكر استناداً على بعض المقاييس والمفاهيم السابقة ومن الصعبان يفكر العقل على أساس غير مألوف.

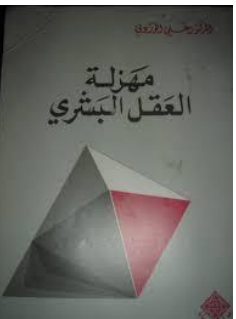


إننا لا نستطيع أن نفهم الله أو الروح أو المادة أو الزمان أو المكان ذلك لأنها أمور لا تدخل ضمن ما نناله في حياتنا المحدود من أدوات ومعايير مثلا واحدا من هذه البديهيات التي أخذت تتحطم على أيدي الباحثين المحدثين هو مفهوم الزمان.

فالناس اعتادوا أن يفكروا عن مفهوم الزمان على أساس الثواني والدقائق التي تمر بهم فهو عندهم مجموعة اللحظات العابرة. إن الفلاسفة القدماء قد حاولوا كثيرا في حل مشكله الزمان و ذهبوا فيه كل مذهب فلم يخرجوا منه بنتيجة مجددة. العقل البشري اعتاد أن يرى الفضاء محيطا بكل شيء من هذه الاشياء التي يعالجها في حياته و ظن أن الكون يجب أن يكون محاطا بفضاء وهذا الفضاء محاط بفضاء آخر.

يمكن تشبيه الانسان بالنسبة للزمان كراكب الدراجة الذي ينظر الى الأرض فيراها تتحرك تحته بسرعة كأنها تمر به والواقع أنه هو الذي يمر عليها وهي واقفه.

الانسان يعيش في عالم ذي ثلاثة أبعاد وهو في العالم لا يرى من الكون الا جزء بسيط إما الحوادث التي تقعد في البعد الرابع فهو لا يعرف عنها شيئا. إننا ندخل اليوم عصرا جديدا بكل معنى الكلمة فلم يبقى فيه إذاً مكان للبديهيات أو المقاييس العامة.

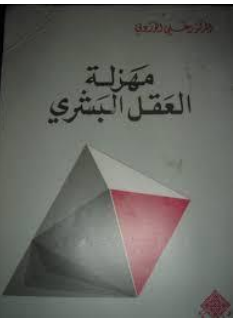


ليس من الممكن أن نقول عن شيء أنه غير مقبول لمجرد أن نراه مخالفا لمألوفاتنا السابقة، إن ما نقول عليه اليوم أنه غير معقول قد يصبح معقولا غدا ولكن هذه الأفكار التي يتحذلق بها الكاتب في هذه السطور ستكون عند أبنائنا وأحفادنا خرافات.

قد علمتنا التجارب أن كل شيء مهما بدأ في نظرنا سخيفا قد يكون صحيحا في يوم من الأيام عندما تتبدل المقاييس الفكرية التي اعتاد الناس عليها في تفكيرهم.

أصبح العلماء اليوم لا يسلمون بأي بديهية تسليما كاملا و إن أجمع على صحتها الناس جميعا. وقد مر على الناس زمنا طويلا كانوا يؤمنون فيه بنظريه الجاذبية التي جاء بها نيوتن ولم يجروا أحد على الشك فيها حتى صارت كالبديهية التي يقتضي صحتها التفكير السليم ثم اتضح أنها فرضيه مؤقتة قد لا تبقى على صحتها الى الأبد كل مجتمع له بديهياته الخاصة وهو مؤمن بأنها مقياس الحق الخالد الى أبد الأبد.

من مهازل القدر أن نرى الحقيقة النسبية الآن مسيطره على البحوث الطبيعية هذا بينما أصحابنا لا يزالون يؤمنون بالحقيقة المطلقة حتى في بحوثهم الاجتماعية والفكرية الخالصة.



الفصل التاسع: ماهي السفسطة؟

من محاسن السفسطة أنها غير منافقة فهي تؤمن بالحقيقة النسبية قولاً وفعلاً. أما أصحاب المنطق القديم فهم يؤمنون بالحقيقة المطلقة نظرياً ويخالفونها علمياً، فكل فريق منهم يدافع عن الحقيقة التي يشتهيها ثم يدعي أنه من طلاب الحقيقة الخالدة التي تصلح لأي زمان وأي مكان.

أهم ما يشغل بال الشعوب الحديثة هو تحقيق العدالة الاجتماعية. إن العدالة الاجتماعية هي هدف جميع المذاهب الاجتماعية المعاصرة وهي محور الجدل القائم بينها على اختلاف آرائها، تفهم العدالة على أساس ما فهمه السفسطيون القدماء.

من المبادئ السفسطائية المعروفة قولهم الإنسان مقياس كل شيء، واستطاع السفسطيون من خلال هذا المبدأ أن يخدموا الفكر البشري خدمة كبيرة.

وذهب السفسطيون إلى أن الحقيقة هي تناقض ونزاع فكل إنسان يرى الحقيقة حسبما تقتضيه مصالحه وشهوته وبتنازع هذه الحقائق الفردية تنبعث الحقيقة الوسطى التي تنفع النوع الإنساني بوجه عام.

الواقع أن السفسطة كانت فلسفة ذات أهمية اجتماعية لا يستهان بها ومن سوء حظها و حظ البشرية أنها غلبت أو قتلت في مهدها فأصبحت محتقرة والمغلوب محتقر دائماً.



إن السفسطة لم تكن خالية من العيوب على أي حال ولكن هذه العيوب يجب ألا تعمينا عن رؤية محاسنها.

ومن محاسن السفسطة أنها كانت تنتقد عبادة الأوثان التي كانت تذخر بها ديانة الاغريق القدماء. فقد هاجم السفسطائيين آلهة القدماء و شكوا فيها فثار عليهم سدة ذلك الآلهة والمنتفعون بها.

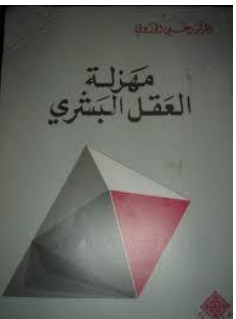
من العيوب التي اتصفت بها السفسطة أنها أثارت الشك في ديانة الاغريق القديمة من غير أن تؤسس مكان دينها الجديد.

يبدو أن السفسطائيين كانوا يقومون في المجتمع الاغريقي بمثل ذلك الدور الذي قام به الحنفاء في مكة قبل البعثة المحمدية. فكانوا يمهدون بشكوكهم طريق النبوة.

إن المنطق السفسطائي كان اجتماعيا بينما كان منطق افلاطون رياضيا وشتان بين منطق الأرقام و منطق البشر.

إن الموت البشري قد خسر خسارة كبرى بموت السفسطة وانتصار المنطق الأفلاطوني ولو كانت السفسطة باقية تدعو الى منطق النسبية والتغيير.

هزمت السفسطة هزيمة كبيرة على يد افلاطون وتلاميذه و ضاعت الكتب الذي كتبها أصحابه عنها، فنحن لا نعرف اليوم عنها الا ما كتب خصومها عنها .



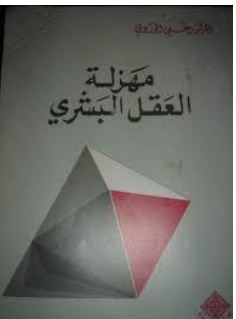
كان الفكر البشري ولا زال يحتاج الى نوعين من الآراء يتنازعان ويتفعلان: الآراء الأفلاطونية والآراء السفسطائية. تلك تصعد به الى السماء وهذه تنزل به الى الأرض وعند هذا يتضح للبشر الحقيقة من تلكا وجهتها.

كان السفسطائيون فقراء يحترفون التعليم لكل من يدفع لهم أجرا وكانوا أذاً يختلفون عن افلاطون المترف الغني الذي كان العبيد يكدهون ليلاً ونهاراً ليكسبوا له المعاش الوفير.

كانت السفسطة ذات منطق ديمقراطي، فهو منطق يجري مع الحياة و يفهم تيارها الدافق ويحارب منطق البرج العاجي الذي اعتنقه المترفون وأصحاب العبيد.

لو رجعنا الى العهد الذي انتشرت فيه السفسطة في بلاد الاغريق القديمة لرأينا فيه الديمقراطية موجودة على وجه من الوجوه و المعروف أن بلاد الاغريق حينئذ عرفت الديمقراطية لأول مرة في التاريخ.

السفسطائيون هم أول من وضعوا الأسس لمهنة المحاماة كما هي عليه الآن والمحاماة في حقيقة الأمر ليست إلا سفسطة على شكل جديد.



الفصل العاشر: الديمقراطية في الإسلام

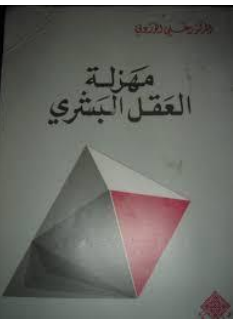
بدأ الإسلام في أول أمره نظاما ديمقراطيا ولكن الديمقراطية اختلفت منه بعدما رفع معاوية المصاحف وقال للمسلمين تعالوا نحتكم الى كتاب الله وكانت النتيجة أن تولى يزيد أمر المسلمين.

عندما تولى علي بن أبي طالب الخلافة بعد عثمان اتضحت في سيرته معالم الديمقراطية وضوحا مدهشا ولعلنا لا نغالي اذا قولنا أن ديمقراطية هذا الرجل وصلت الى درجة يعجز في الوصول اليها الكثير من حكام القرن العشرين.

ما يلفت النظر في ديمقراطية الإمام علي أنه كان لا يذهب مذهب القدماء في عقيدة الحاكم الإلهي إنما كان يعتقد بأن الحاكم يجب أن ينتخبه الناس وأن الناس يستطيعون خلعهم إذا ظلمهم أو جار في حكمه إياهم.

كان علي بن أبي طالب يعتبر الإسلام قد جاء لغرض آخر غير غرض الفتح الذي سعى نحوه الأمويين والوهابيين، لهذا وجدناه يقول عن الهجرة أنها قد توقفت بعد معركة بدر وكان في أيام خلافته يعتمد على البدرين ويهدد بهم معاوية.

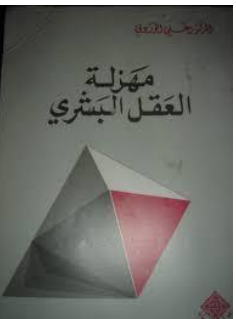
ليس لدينا شك في أن العدالة والجماعة كانتا متوافرتين في عهد أبي بكر وعمر إنما تلك كانت فترة مؤقتة لا يمكن أن تستقر على حالها زمنا طويلا. فالمجتمع المتطور لا يمكن أن يبقى على تماسكه وانسجامه أبدا لا سيما إذا دخل عليه حضارة جديدة.



كان معاوية يعزو سبب تفريق الجماعة إلى علي بن أبي طالب أما هؤلاء فيعزونه إلى ابن سبأ. والظاهر أنهم لم يجاروا معاوية في وصف علي بهذه الوصمة فابتكروا لهم شخصية ابن سبأ الخرافية وأخذوا يصبون عليها ما شاءوا من اللعنات الحارة والباردة.

لا بد للمجتمع المتطور من أن ينقسم الناس فيه إلى فئتين: فئة محافظة وأخرى معارضة. إن كل داعية من دعاة الإصلاح لا بد أن يفوق بدعوته الجديدة جماعة الأمة و يمزق شملها. إنه يفرقها لكي يجمعها من جديد على قاعدة جديدة ولهذا وجدنا كل حركة اجتماعية في التاريخ بانية و هادمة في آن واحد، فهي تهدم النظام القديم لكي تحصل على نظام جديد أقرب إلى روح العدل مما مضى.

يشبه علماء الاجتماع النظام الاجتماعي بجلد الحية فالحية تخلع جلدها في كل مدة معينة من الزمن ولولا ذلك لتعفن الجلد عليها. وهذا رأي لا يفهمه أصحاب المنطق القديم فالنظام الاجتماعي الصالح يبقى في نظرهم صالح إلى أبد الأبدية وهم يدعون الناس دوما إلى الرجوع إلى ذلك النظام الذي كان سائدا في الناس قبل مئات السنين.



أما المنطق الحديث فيقول بأن الصالح لا يبقى على صلاحه زمنا طويلا فهو يفسد حتما بمرور الأيام ولذا وجب على المجتمع أن يبدل حكامه في كل فترة معينة من الزمن ومن هنا جاء مبدأ التبدل المستمر في الوزارات والرئاسات في العصر الحديث.

إن الديمقراطية الحديثة ليست الا ثورة بيضاء حيث يبدل الشعب حكامه بواسطة الانتخابات والشعوب الآن تستخدم أوراق التصويت لحين الغرض الذي كانت تستخدم السيوف من أجله قديما.

إن الثورة الديمقراطية لم تصبح بيضاء مرة واحدة فلقد كانت في مبدأ أمرها حمراء وظلت كذلك زمنا طويلا. فإننا عندما نمجد الثورة الفرنسية و الثورة الأمريكية فإننا يجب أن نمجد أيضا ثورة علي و الحسين و زيد و غيرهم من الذين ضحوا بأنفسهم من أجل هذه المبادئ التي نجني ثمارها في هذا العصر.

لقد استبدلت الديمقراطية الحديثة مبدأ الحكم الإلهي بمبدأ المحاسبة والمراقبة ، وأصبح الحاكم اليوم فردا من الناس تستخدمه الأمة في شؤونها العامة فإذا رأت منه اعوجاجا صفعته وأنزلته من مكانه.

إن الثورة في مفهومها العلمي لا تعني العنف بالضرورة فالجالس في بيته قد يعد ثائرا إذا كان مؤمنا بحقوق الانسان كما جاءت بها الثورة الفرنسية وغيرها من الحركات الاجتماعية الكبرى.



الفصل الحادي عشر: علي و عمر

لا ننكر أنه حدث شيء من الخصومة و المنابذة بين علي و عمر بعد وفاة النبي مباشرة لا سيما في حياة السيدة فاطمة، ولكن ذلك كان أمرا مؤقتا انتهى بموت فاطمة كما هو معروف حيث بايع علي أبي بكر و صلى خلفه و أيده و فعل مثل ذلك مع عمر عندما تولى الخلافة.

كانت خصومة علي و عمر بعد وفاة النبي حول الخلافة كان علي يرى أنه أولى بها من غيره بينما كان عمر يريد الخلافة لأبي بكر لكي يتولاها من بعده. وعلى هذا قام نظام الديمقراطية أو الشورى في الإسلام.

إن النظام الديمقراطي يقوم على أساس المنافسة بين عدد من المرشحين للوصول الى كراسي الحكم ولولا هذا التنافس لسيطر الطغاة على الناس واستغلوا جهودهم وأموالهم في سبيل شهواتهم الخاصة.

لا شك أن عمر كان يريد الخلافة لنفسه وسلك من أجل هذا سبلا شتى ولكنه عندما تولى الخلافة أحسن التصرف بها وكان فيها إماما عادلا يندر أن يظهر له مثيل في التاريخ.

عقيدتي في علي أنه لا يريد الخلافة من أجل مصلحته الشخصية إنما كان يريد لها ليحقق مبادئ الثائر الأعظم محمد بن عبدالله.



الواقع أن علي و عمر و أبي بكر كانوا من حزب واحد هو حزب الثورة المحمدية ولهذا وجدناهم يناوئون قريشا ويفضلون عليها سلمان الفارسي وبلال الحبشي و صهيب الرومي أما ما حدث بينهم من خصومة طفيفة في يوم من الأيام فلا يستوجب أن يكون شعارا لنزاع اجتماعي عام يقتتل الناس فيه و يتنازعون.

عندما مات عمر كان الترشيح للخلافة منحصر بين شخصين لا ثالث لهما : عثمان و علي وكان عبدالرحمن بن عوف مخولا للبت في بيعة أحدهما، واجتمع ابن عوف في الليلة التي سبقت يوم البيعة بعلي فناجاه حتى مطلع الفجر. ولا يدري أحد ماذا دار في تلك المناجاة من حديث ذي شجون .

وعندما اتجه الناس في المسجد صباحا اتجه ابن عوف الى علي وسأله في شيء ثم تظاهر ابن عوف أنه غير راضي عن جواب علي فاتجه الى عثمان فأجاب بنعم فبايعه ابن عوف ومن ثم بايعه الناس من بعده.

ولم يكد يتسلم الخلافة حتى ظهر الفرق بينه و بين عمر بجلاء ولا ريب أن هذا الفرق كان في أول أمره بسيط جدا والذي يدرسه دراسة منطقية مجردة لا يعطيه أي أهمية تذكر.



إن العذر الشرعي يستطيع أن يأتي به أي انسان مهما كان ظالما وقد أصاب السفسطائيين قديما حين قالوا بأن العدل صيرورة اجتماعية أكثر مما هو فكرة مجردة موجودة في عالم الخيال.

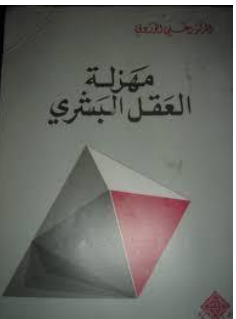
كان عمر بن الخطاب يجري أسلوبا غير أسلوب عثمان بن عفان وكثيرا ما وجدناه يخالف النص الشرعي من أجل الموازنة بين قريش و غيرهم ويعاقبهم أكثر مما يقتضه الحد الشرعي لكي يبعث الطمأنينة في قلوب المهاجرين والأنصار و أيضا في قلوب الأعراب.

إن الذي يريد العدل بين الناس يجب أن يراعي مشاعرهم قبل أن يراعي نص القانون فالنص القانوني قد يستخدمه العادل و الظالم معا.

إن الحاكم العادل في رعيته هو كالأب الحانق بين أولاده فالأب قد يضطر أحيانا الى عقاب أحد أولاده بلا ذنب جناه و ذلك لكي يشعر الباقين أنه لا يفرق بين أحد منهم وأن الكل في عينه سواء .

مشكلة المنطق الأفلاطوني أنه يبتغي عدلا كاملا لا ظلم فيه وهذا أمر لا يود إلا في السماء. أما في الأرض فالعدل يجب أن يكون مشوبا بشيء من الظلم لكي يوتي ثماره.

إذا انتشر الوضع السياسي في الناس فمن الصعب السيطرة عليه بالمعايير الشرعية أو الحجج المنطقية.



يبدو أن الناس كانوا يشعرون حينذاك بالأسف لأمرين: أحدهما موت عمر و الثاني تحية علي عن الخلافة ولهذا كانوا لا يلمحون عن عثمان شيئاً يكرهونه حتى يذكروا عمر و يذكروا علي معا.

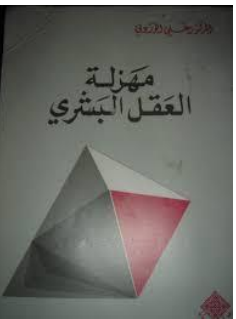
يقول المؤرخون أن عثمان أحس في أواخر أيامه بشيء من الغيرة من علي و عمر فصار يشكو من علي تارة و يتذمر من اعجاب الناس بعمر تارة أخرى.

يتضح من التجاوب النفسي بين الحاكم و المحكوم أمر ضروري في قيام العدل الاجتماعي. و إذا نشأت الفجوة بينهما ضاعت المقاييس و تبعثرت المواهب و الكفايات حيث تسمى لا فائدة منها.

إن الناس لم يثوروا على الطغاة الذين سفكوا دمائهم و جوعوهم و سلطوا عليهم الجلاوزة يضربون ظهورهم بالسوط وذلك لأن الناس اعتادوا على ذلك منذ زمن بعيد فهم يحسبوه أمراً طبيعياً لا فائدة من الاعتراض عليه.

من المشاكل التي جابهت عثمان أثناء الثورة أنه كان متردداً بين أن يخلع نفسه فيرجع الخلافة شورى بين المسلمين أو أن يستسلم للقتل.

أكاد أعتقد أن عثمان قتل من أجل قميصه فلولا هذا القميص لما استطاع معاوية أن ينال الخلافة حتى ولو كان كعب الأحرار قد جاءه بالتوراة كلها لتأييده.



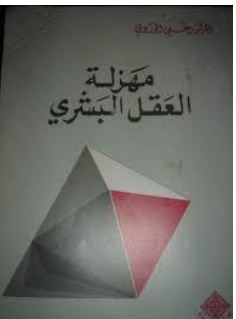
عجيب أن نرى عثمان يستسلم للقتل وينهي أصحابه جميعا عن الدفاع عنه أو اشهار السيف من أجله فيطيع أصحابه أمره ويتفرقون عنه ولكن بني أمية لا يطيعون أمره ولا يتفرقون إنما وجدناهم ينزلون الى الشارع فيبارزون الثوار وهم يرتجلون كأنهم نازلون الى معركة فعلية.

كان التنارع في عهد عثمان يدور حول مبادئ العدالة والمساواة ولكن بعد ذلك حوله معاوية فجعله يدور حول علي و عمر أيهما أفضل؟ وبهذا نسي الناس كفاح علي ضد معاوية وانشغلوا بالفضائل الشخصية وكل فريق يأتي لصاحبه من الفضائل ما يكسف بها فضيلة زميلة.

إن الخلافة وسيلة لا غاية ولهذا وجدنا علي يبايع الشيخين ويخلص لهما ويصلي خلفهما وذلك حين رأهما يسيران في الخلافة سيرة العدل والرشاد.

كثير من الناس يشعرون من أنهم مظلومون من ناحية من النواحي. ولم يظهر في هذه الدنيا نظام اجتماعي يرضى عنه الناس جميعا والفرق بين نظام والآخر هو ما يشعر به أكثرية الناس من ظلم أو جور.

تورط الثوار في مقتل عثمان وتورطت السيدة عائشة في معركة الجمل وتورط جميع المسلمين من بعد ذلك. ويأتي أنصار بني أمية فيضعون مسئولية كل ذلك على عاتق شخص وهمي لكي يستتروا به على أحبائهم.



الفصل الثاني عشر: التاريخ والتدافع الاجتماعي

إن التاريخ البشري في الواقع عبارة عن حركة دائبة والحركة لا تظهر إلا إذا كان فيها تفاعل بين عاملين متعاكسين فالعامل الواحد معناه السكون والجمود.

يأخذ المؤرخون وجهة نظر الحاكم وينسون وجهة نظر المحكوم ولهذا يصح أن نصف التاريخ القديم بأنه أعرج يمشي على قدم واحدة.

إن الباحث الاجتماعي الحديث ينظر الى التاريخ نظرة أخرى فهو محايد يدرس وقائع السلاطين الفاتحين كما يدرس وقائع الشعوب المفتوحة فلا يدين جانباً ويبرئ جانباً الكل في نظره سواء. إن السيطرة والتمرد وجهان متلازمان من أوجه التاريخ الاجتماعي وليس من الممكن فصل أحدهما عن الآخر.

التاريخ في القرآن عبارة عن صراع مرير بين رجال من طراز فرعون ورجال من طراز موسى وفي كل زمان موسى و فرعون فالتاريخ إذاً لا يهدأ ولا يفتر فهو يطلع علينا كل يوم في ثوب جديد ينسينا الماضي ويحركنا نحو المستقبل.

إن البحوث الاجتماعية الحديثة توافق القرآن، فالمترفون في كل أمة يقاومون الحركات الاجتماعية الجديدة وهم يعتزون بتقاليدهم الموروثة أولاً وبأموالهم المقنطرة ثانياً وبمكائنتهم الاجتماعية ثالثاً.



الأنبياء قد اتخذوا من كفاح المترفين طرقاً شتى فمنهم من اتخذ طريق الثورة الإيجابية كموسى، ومنهم من اتخذ طريق الثورة السلبية كعيسى ومنهم من مزج بين الطريقتين كمحمد. اختلفوا في الوسيلة ولكن غايتهم كانت واحدة. هي مكافحة المترفين الظالمين والدعوة إلى مبادئ العدالة والمساواة.

يريد المترفون أن يرجعوا بالمجتمع إلى الوراء ويريد الأنبياء أن يسيروا به إلى الأمام وبواسطة هذا التفاعل الاجتماعي تنمو الحضارة من جهة ويتطور المجتمع من جهة أخرى.

إن التفاعل المستمر بين الأنبياء و المترفين على مر العصور هو الذي أنتج لنا هذه المدنية الحديثة التي ننع بها الآن. وهذه المدنية قد اجتازت بأمرين يمكن اعتبارهما من عجائب التاريخ : هما الحكومة الديمقراطية من ناحية والتقدم العلمي من الناحية الأخرى.

ولنا أن نقول أن العلم نوعان: علم الدين الذي يمثل تعاليم الأنبياء، وعلم الدنيا الذي يمثل ترف السلاطين. كان السلاطين قديماً يستعبدون الناس باسم الدين فهم في نظر الناس ظل الله في الأرض.

ومما يلفت النظر أن المترفين هم أقدر من غيرهم على القيام بالطقوس الشكلية ولديهم من المال الفائض ما يشيدون به الأوقاف الواسعة والمعابد الباذخة فيخيل للناس أنهم أقرب إلى الله من غيرهم.

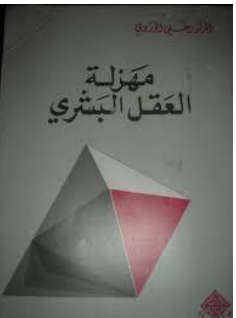


مشكلة المأمون و من حوله من العلماء الأفاضل أنهم ينظرون في أمور المجتمع في ضوء المنطق القديم. كلهم طوبائيون يعتقدون بأن النبي يستطيع بكلمة واحدة أن يزيل أسباب النزاع من بين البشر ويجعلهم أمة واحدة يعيشون في إخاء و وئام الى يوم الدين.

يقول بعض المستشرقين أن الجيوش الفاتحة أدخلت الشعوب في الاسلام بحد السيف، وهذا قول يعصب علينا الموافقة به ونحن نعرف إذا استخدم السيف في التبشير الديني أدى الى عكس المطلوب، والانسان مجبول على معاكسة كل رأي يفرض بالقوة عليه.

اختفى الصراع بين الحاكم والمحكوم في العصر الحديث تحت ستار من الجدال الحزبي والحملات الانتخابية فظن الناس أنه غير موجود وضروري في آن واحد إنه صراع بين غالب ومغلوب ومن النادر أن يحب المغلوب غالبه أو يحب الغالب مغلوبه، الطبيعة البشرية كالسيل العارم يجرف كل من يقف أمامه وعلى من يدرسون التاريخ أن يتفهموا هذه الحقيقة قبل أن يتفقهوا على رؤوسنا بأقاويلهم الأفلاطونية التي لا تسمن ولا تغني من جوع.

يعتقد المسلمون أن الخلافة هي كل شيء في المجتمع الاسلامي فإذا صلحت صلح ما سواها وهذا رأي لا يقرهم عليه علماء الاجتماع الحديث فالمعارضة قد تكون أهم من الحكومة في أمر الاصلاح الاجتماعي.



إليك بعض المبادئ الذي دعا بها الامام علي :

كان علي يقول أن المال للأمة ولا يمكن أن ينتفع به أحد غيرها.

قال أن الله تعالى قال أنه فرض على الأغنياء في أموالهم بالقدر الذي يسع الفقراء.

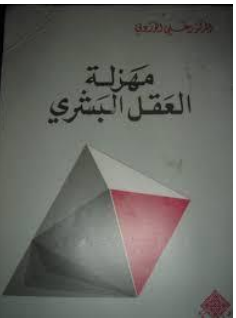
كان علي يكره الولايم التي اعتاد الناس على القيام بها.

كان علي يكره الكرم المألوف بين الناس.

كان يساوي في العطاء فلا يفضل عربيا على مولى ولا سيذا على عبد.

كان علي يساوي في المعاملة بين الناس جميعا.

الواقع أنه لم يكن علي حاكما بالمعنى المألوف لدينا وهو لم يتسلم الحكم وراثة من أبيه كما هو شأن الحكام في العصور القديمة ولكنه زعيما متبوعا بايعه الناس لكي يحقق المبادئ التي ثاروا من أجلها في عهد عثمان. إن المبادئ المثالية تصلح لإثارة الناس ولا تصلح لإخضاعهم والذي يريد أن يخضع الناس لسلطانه يجب عليه أن يتبع فيهم مبادئ تحتوي على الإرهاب والظلم.



أكثر الناس يشعرون الحرمان والتذمر في هذه الحياة وهم يجدون عزاءهم في تقديس إماما لم يلذذ بهذه الحياة ولم ينعم بها. ومن الصعب على المحروم المتألم أن يقدر إماما مترفا.

إن من مفارقات التاريخ أن تتخذ للدولة الأموية مقتل عثمان شعارا لها ثم تأتي المعارضة بعد ذلك فتتخذ من مقتل الحسين شعارا مضادا وصار التاريخ الاسلامي يتأرجح بين هذين المقتلين زما فكان كل فريق يبالغ في تصوير شعاره وفي اذاعته بين الناس، أحدهما يبكي على عثمان والآخر يبكي على الحسين.

نحمد الله أننا نعيش في عصر جديد حيث نزلت الدولة من عليائها وأزيع عنها ستار الحق الإلهي المقدس وأصبحنا ننظر الى الحكام كما ننظر الى الخدام الذين يستأجرهم الناس في رعاية شئونهم.

